تجديد التحرير

تحيِّرني هذه الأيام قضيةٌ كبرى، على بساطتها الظاهرة:

كيف نستطيع أن نَهْزمَ إسرائيلَ في لبنان، ونَعْجز عن بناءِ معارضةٍ وطنيةٍ حقيقية؟

كيف نستطيع أن نُربكَ إسرائيلَ في فلسطين، ثم نُربك أنفسَنا بما هو أسوأ: صراعاتنا الداخلية القاتلة؟

كيف نُوقعُ آلافَ القتلى والجرحى في صفوفِ الاحتلال الأميركي ومرتزقتِه في العراق، ونَفْشل في صياغةِ مشروعٍ وطني عراقي يتجاوز الصراعَ السنّي ـ الشيعي؟

العلّة ليست متأصِّلةً فينا، كعربٍ وكمسلمين، بالتأكيد، كما يريدنا أن نصدِّق بعضُ المستشرقين وكثيرٌ من جلاّدي الذات العرب. فليس في «الذهن العربي» أو «العقلية الإسلامية» ثغرةٌ يعصى على الذكاءِ الإنساني النفاذُ إليها. وليس في نَسْلِنا أو فئة دمنا أو خِلْقتنا آفةٌ تعوِّق التطوّر.

أنا ضائع فعلاً. لا أفهم كيف أبدَعْنا أجملَ مقاومةٍ إنسانيةٍ في العالم، هي المقاومةُ الوطنيةُ اللبنانية (أو الإسلامية، سمّوها ما شئتم)، التي تحتاج إلى تدريبٍ وخيالٍ وتفانٍ وتضحيةٍ نادرة؛ ولكنّنا في الانتخابات النيابية نخوزِقُ مرشّحي اليسار الوطني أمثال إبراهيم الحلبي وأنور ياسين وسعد الله مزرعاني وغيرِهم بتحالفاتٍ مذهبيةٍ مغلقة. لا أفهم كيف كَسَرْنا هيبةَ الميركاڤا والجيشِ الذي «لا يُقْهر»؛ ولكنّنا عَجزْنا عن أن نطالبَ بأكثر من «الثُّلث المعطِّل» البالي في حكومةٍ «وطنيّة» بالية. ولا أفهم كيف نصنِّع أذكى الألغام ضدّ الآليات الأميركية في العراق؛ ولكنّنا نصنِّع أيضًا سيّاراتٍ مفخّخةً أشدَّ فتكًا لتقتلَ أتباعَ المذاهب المختلفة هناك!

أقربُ ما قد يزيل شيئًا من حيْرتي هو الإجابةُ التالية:

إنّنا نحتاج إلى قيادةٍ جديدة، مستقلّة، غيرِ طائفيةٍ ولا مذهبية، مجّانيةٍ (كما يقول غريغوار حدّاد)، أيْ غيرِ أنانية، فيها الكثيرُ من المثاليةِ والأخلاقِ والنُّبْلِ والاعترافِ بالآخر داخلَ المجتمع وداخلَ المقاومة. ونحتاج إلى فكرٍ مقاومٍ جديد، لا يقدِّم وجهًا من أوجه الصراعِ على آخر: فبناءُ عراقٍ واحدٍ، ديموقراطيّ، موحَّدٍ لجميعِ مواطنيه ومُواطناته، ليس هدفًا أقلَّ نبلاً من تحريره من الاحتلال الأميركي. وبناءُ لبنان غيرِ طائفي، وغيرِ عنصري، يتساوى فيه أبناؤه وبناتُه في الفُرص والواجبات، ليس غايةً تَنْقص شرفًا وشجاعةً عن قتلِ المحتلّين الإسرائيليين وأَسْرِ جنودهم. وبناءُ مجتمعٍ فلسطيني سيِّدٍ على أرضه ومعابرِه ومياهه وأجوائه، ويَقْبل التعدديةَ السياسيةَ والحزبيةَ وحريّةَ المرأة، ليس ممّا ينبغي أن «نؤجِّلَه» إلى حين تحرير الأرض من الاستيطان الإسرائيلي.

سماح إدريس

وفي قلب هذه الحَيْرة، علينا أن نبحثَ عن «عناصرَ» أهملناها زمنًا طويلاً، وعلى رأسها الأطفالُ والأحداثُ (الفتيان والفتيات) والقوةُ النسائيةُ التي لا ننفكّ نَزْعم ـ نفاقًا وبلا حياء ـ أنّها «نصفُ المجتمع» من دون أن نَفْعل شيئًا. كيف نبني مجتمعًا (بل ومقاومةً بالمعنى الواسع للكلمة) إذا بقي الأطفالُ صاغرين مستكينين مطيعين لـ«فتاوى» الأهل والمعلّمين العشوائية، والفتياتُ والفتيانُ ممنوعين من الترشُّح والترشيح في سنّ الثامنة عشرة، والنساءُ مغيَّباتٍ (فعلاً لا قولاً) عن سدّة القرار السياسي... في السلطة والمعارضة معًا؟

سواءٌ أسفنا أو لم نأسفْ، فإنّ المقاوماتِ العربيةَ اليومَ، خلافًا للمقاومات في أميركا اللاتينية مثلاً، تستند في أساسها إلى الطوائف أو المذاهب. وقوى اليسار والعلمانية العربية مهمَّشة، مع أنّها كانت في أساس انطلاق معظم المقاومات المذكورة (حركة القوميين العرب، منظمة التحرير الفلسطينية، الحرس الشعبي، الحزب الشيوعي، الحزب القومي، حزب العمل الاشتراكي العربي، منظمة العمل الشيوعي،...). اليومَ، أسِفْنا أو لم نأسفْ، أَوصلَتْنا المقاوماتُ ذاتُ المنبع الديني / المذهبي إلى مرحلةٍ لم تعد تستطيع تجاوزَها نحو بناءِ دولةٍ ومجتمعٍ صحيّيْن، رغم أنّ هذيْن الأخيريْن هما وحدَهما الكفيلان بالحفاظ على إنجازات المقاومة في لبنان وبتطوير هذه الإنجازات في فلسطين والعراق. ففي لبنان لم تتحوّل المقاومةُ الإسلاميةُ إلى مقاومةٍ شاملة ـ ومسؤوليةُ ذلك تقع في الأساس على قوى الرابع عشر من شباط المرتبطةِ بالأجندة الأميركية والمصالح السعودية؛ ولكنّ حزبَ اللّه واليسارَ يتحمّلان هما أيضًا جزءًا كبيرًا من المسؤولية: الأوّل بسبب بنيته المذهبية، عناصرَ وقياداتٍ ومؤسّساتٍ (بغضّ النظر عن نيّاته)، والثاني بسبب ضعفه وتفكُّكه وافتقارِه إلى الديموقراطية في داخله وانتهازيةِ عددٍ من «قياداته» السابقة وانقلابها على مبادئها الأولى. والمقاومة في فلسطين تمزّقتْ بين سلطتيْن عاجزتيْن عن مواجهة العدوّ الإسرائيلي ـ ومسؤوليةُ ذلك تقع أساسًا على فريق أوسلو الذي كاد يودي بالقضية الفلسطينية، استبدادًا وفسادًا وتنازلات (أمام إسرائيل وأميركا لا أمام الشعب الفلسطيني)؛ لكنّها تقع أيضًا على اليسار الفلسطيني المفكَّكِ والمهمَّش و«المخردَق» بوعود محمود عبّاس، وعلى نهج «حماس» الانقلابي المعكوس الذي يستعدي ـ تدريجًا ـ فئاتٍ متزايدةً من الفصائل والشخصيات الوطنية الفلسطينية. أما في العراق فالمصيبةُ أكبر؛ إذ إنّ المقاومةَ العراقية، كما يبدو، خبيصةٌ من المناضلين الشرفاء، ومقاتلي «القاعدة» المذهبيين، وعناصرَ بعثيةٍ لا تأبهُ كثيرًا بالتعددية، وربما دَخَلَ في صفوفِ المقاومة أيضًا عناصرُ إيرانيةٌ لأهدافٍ لا علاقةَ لها بتحرير العراق بقدْرِ علاقتها بتحسينِ شروطِ العراك أو «الكِباش» الإيراني ـ الأميركي.

وفي كلّ الأحوال، فإنّ المقاومات العربية تَضْرب العدوَّ هنا وهناك وهنالك، على تفاوتٍ في ما بينها؛ ولكنّها لا تُسْهم في وقف النَّخْرِ داخل المجتمع اللبناني / الفلسطيني / العراقي. ووقفُ النَّخْرِ هذا لن يكون، كما قال صديقي نجاح واكيم، إلاّ «بنقلِ المقاومة إلى حالةِ تحرُّرٍ وطنيّ» مجتمعيّ عامّ.

والسؤال الأهمّ اليوم هو مَنْ يتنكّب عبءَ النَّقْل المذكور؟

هنا، في اعتقادي، يأتي دورُ القوى والشخصيات الوطنية والقومية، اليسارية والعلمانية، على علاّتها ومآزقها وتناقضاتها وانقساماتها وإحباطاتها (الحزب الشيوعي اللبناني، حركة الشعب، الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، تيّار المجتمع المدني، حزب الكرامة وحركة «كفاية» في مصر، التشكيلات المدنية العلمانية المتنوِّعة...). فهي القوة الأساسية التي ينبغي أن تطوِّر قدراتها الكفاحيةَ، وأن تعزِّز تحالفاتها فيما بينها، وفق برنامجِ عملٍ مدروسٍ وواقعيّ وثوريّ في الوقت نفسه. ومن هنا أهميةُ العمل على شكلٍ متطوّرٍ ومبدعٍ من أشكال التنسيق القومي ـ اليساري النضالي الفعّال في الساحات الصراعية الأساسية (العراق، فلسطين، لبنان،...). وتطويرُ القدرات يتطلّب تطويرَ مجالاتِ عملٍ متعدّدة في الثقافة والسياسة والاجتماع، ولاسيّما في موضوعات العلمنة، ومقاطعة إسرائيل، وتجديد العروبة، والمشاركة الشبابية والنسائية، وتمكين الفتيان والفتيات ومَدِّهِمْ بأسبابِ القوة والتمرّدِ والثقةِ بالنفس من أجل ولوجِ معترك السياسة الكفاحية النبيلة.

ولكنْ، هل يعني ذلك أن تتقوقع قوى التقدُّم والتحديث والعلمنة على نفسها، وأن «تتقنفذ» (من القنفذ) لحمايةِ ذاتها من المساومات و«أوحالِ» السياسة؟

كلاّ، بالتأكيد. فهذا ليس من السياسة، بل ولا من الثقافة العملية، في شيء. فاللقاءاتُ والتفاهماتُ مع القوى المقاومة غير العلمانية، أو الأحزاب والشخصيات الرافضة لتجدُّدِ أو تفاقمِ الحرب الأهلية في لبنان والعراق وفلسطين، أمرٌ حاسمٌ ليس فقط لبقاء هذه الكيانات العربية على قيد الحياة ودرءِ خطر التقسيم عنها، بل حاسمٌ أيضًا لنجاح أو تطوير أكثرِ المحاور الصراعية المذكورة أعلاه (وعلى رأسها: مقاطعةُ إسرائيل، والمشاركةُ الشبابية). ومع ذلك، فإنّ قَدْرًا ولو بسيطًا من التقنفذ ضروري هو كذلك من أجل تثقيفِ الذات، وبذلِ طاقاتٍ أكبر للتعرّف إلى «العناصر» التي غيّبناها طويلاً، وتجديدِ القناعات التي أثبتتِ الأحداثُ صحّتَها النسبيّة، أو كَشْطِ القناعاتِ التي تكلّستْ وتحجّرتْ حتى باتت عائقًا أمام أيّ تقدّم.

تلك ستكون، بالتأكيد، وسيلةً من الوسائل التي تَحُولُ دون أن يذهبَ شلاّلُ تضحياتِ المقاومات العربية هدرًا.

بيروت